أبحاث

مفهوم الوحي وأثره في العقل والقلب

مقاربة في تحليل الخطاب

د. المهابة محمد ميارة الشنقيطي[*]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

يسعى هذا البحث إلى إحياء شعيرة التدبر في نصوص من القرآن الكريم؛ إذ التدبر بصيرة ومنهاج يحقق الفهم والتأثر والتبصر والعمل بموجب العلم، وهو من أجل الأعمال الفكرية والقلبية والروحية التي تسمو بالإنسان إلى الآفاق الكبرى للطاعات والقربات والعبادات الخاصة ذات الوزن الثقيل، فضلا عن كونه مفتاحا للقلوب انتفاعا بكنوز القرآن وعلوم الشريعة وقيم الحياة: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته"[(١)].

كما يهدف هذا البحث إلى الضبط المصطلحي والسياقي والدلالي لثلاث مفهومات رئيسة: هي "الوحي" و"العقل" و"القلب" وتتبع مواطن ورودها في القرآن المجيد، وما

(*) أستاذ مساعد بجامعة الإمارات العربية.

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ج١ ص٤٧٥.

تعبر عنه من المعاني والمقاصد والقيم، وما تحيل عليه من المواقف والمناهج والرؤى؛ وبيان ما بينها من تداخل وترابط، وتكامل وتفاعل، وتمايز وتقارب، وعموم وخصوص.

ولا شك أن الوحي الإلهي ممثلا في القرآن الكريم هو المرجعية الأمّ للمفاهيم والمقاصد والضوابط والمعايير والأصول الشرعية والعلمية؛ ومن ثم تتحدد وظائف العقل والقلب وحدود كل منهما وأوصافه ومجالاته من خلال لغة الخطاب وسياقاته وقرائنه المتنوعة كما تتحدد بجمع الآيات المتعلقة بكل مصطلح ودراستها دراسة موضوعية تحليلية جامعة بين السياق والنسق. ولعل هذا ما يتجلى في فوائد اعتبار السياق: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة؛ وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته"(١).

ولا شك أن النظر العلمي والمنهجي إلى النص القرآني قصد الفهم والتأويل والتدبر لا يمكن أن يثمر النتائج الحقيقية التي يمكن أن تصنف في باب الجودة والتميز والإبداع إلا إذا انطلقت مقاربته من منهاج سياقي متكامل العناصر والمعطيات والأدوات اللغوية والمعرفية والتداولية: "السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية، ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ"(٢).

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، ج٩ ص٤.
(٢) عبد الرحمن بودرع، منهج السياق في فهم النص ص٢٧.

ولعل دراسة السياق على هذا النحو تُجلي للباحث في علوم القرآن وجوه الترابط والتناسق بين المفرات والجمل بحيث يبدو النص كيانا معنويا وتركيبيا واحدا يأخذ بعضه برقاب بعض ولا يقبل التجزئة أو التقسيم لقوة السبك والتماسك والاتساق والانتظام حيث: "يضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق"(١).

ولعل هذا الارتباط الحاصل في بنية الآية الواحدة، والقائم بين الآيات، والجاري بين أجزاء السورة، والواصل بين السور كلها، هو ما تجلى في نسق واحد تترابط أجزاؤه، وتتصل اتصالا عضويا عجبا يجعل القرآن يأخذ بعضه بحجز بعض في نمط مفحم من الإعجاز: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(٢).

ولا يكفي في التعاطي مع النص الاكتفاء بالسياق اللغوي والبنية الداخلية، بل لا بد من مراعاة المعطيات الأخرى زمانا ومكانا ومتكلما ومخاطبا وحالا حتى يتحقق الفهم السليم فالاستنباط العليم فالتطبيق الحكيم بعيدا عن الشذود والشطط والاعوجاج: "ولا شك أن المنهج السياقي ببعديه: البعد اللغوي الداخلي، والبعد الخارجي المقامي؛ يقدم بين يدي فهم النص الشرعي نسقا من العناصر التي تقوي طريقة فهمه وتفسيره والاستنباط منه؛ لأن العلم بخلفيات النصوص وبالأسباب التي تكمن وراء نزولها أو ورودها يورث العلم بالمسببات، وينفي الاحتمالات والظنون غير المرادة، ويقطع الطريق على المقاصد المغرضة التي لم يردها الشارع الحكيم، ولم يرمها، ويصحح ما

---

(١) المرجع السابق ص٢٧.

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب،ج٥ ص٣٤٥.

اعوجَّ من أساليب التطبيق"[١].

لذا يركز هذا البحث على بيان طبيعة العلاقة بين القلب والعقل،ويتتبع السياقات القرآنية التي ورد فيها هذان المصطلحان، وما نُعتا به من نعوت محمودة أو مذمومة، وأيهما القائد أو التابع؟ وهل العقل قوة من قوى القلب أم كلاهما طاقة مستقلة؟ وما الآثار التي ينشؤها الوحي في القلب والعقل والحياة؟ ومن هنا "فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية"[٢].

كما يتناول هذه الطاقة الإنسانية الجبارة المعبر عنها تارة بالنفس، وتارة بالعقل، وتارة بالقلب، وتارة بالروح، مركزا على مفهومين مركزيين هما القلب والعقل، ويقف عندهما بالدراسة والتحليل مستخدما التكشيف والتوصيف، والمقارنة والتصنيف، والمقاربة والاستنباط، في إطار رؤية اجتهادية تنطلق من دلائل النص وقرائنه وسياقاته، وتستأنس بأقوال البلاغيين واللسانيين وعلماء الدلالة وأئمة مدارس التفسير ومناهجهم في التأويل والتدبر دون أن تتقيد بمدرسة معينة وتلتزم بأطاريحها ومقولاتها، بل تجعل الوحي هو النص الحاكم والمهيمن الذي من خلاله تتقرر الاتجاهات والقيم والمناهج.

خطة البحث:

تتكون خطة هذا البحث من: مقدمة، وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تناولت فيه مفهوم الوحي في اللغة والاصطلاح، وماله من دلالات

(١) المرجع السابق ص٢٦.

(٢) ابن تيمية مجموع الفتاوى، ج١٤ ص٦.

تتعلق بالسياق وكيفيات ورود الوحي ونعوته وأوصافه وحالاته وأصنافه.

المبحث الثاني: نقف عند مفهوم العقل في اللغة والاصطلاح وأثر القرآن فيه وتربيته له، وكيف وظَّفه القرآن في إثبات التوحيد كما نبيِّن مفرات مجاله الدلالي في القـــرآن المجيد.

المبحث الثالث: ندرس مفهوم القلب في اللغة والاصـــطلاح، وســـياقات وروده، ونعوته سلبا وإيجابا، وأثر الوحي فيه ووظائفه ومفردات مجاله في الوحي الإلهي المجيد.

* * *

المبحث الأول

مفهوم الوحي، ودلالاته في السياق، وكيفيات ورود الوحي

مفهوم الوحي:

الوحي المقصود في هذا البحث هو الوحي الإلهي الخاتم، وإنما أعني القرآن المجيد، وهو في الاصطلاح: "كلام الله المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بوساطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس"[١].

وإذا كان "الحس" و"العقل" و"التجربة" من أبرز أصناف المعرفة وأكثرها تداولا لدى الدارسين والمؤرخين للعلوم والفلسفات والآداب؛ فإن "الوحي الإلهي" (Divine Revelation) يعد أعلى مصادر المعرفة ثباتا وشمولا، وحكمة وتشريعا، وامتدادا وخلودا، وتدوينا وتوثيقا، وإقناعا وتأثيرا، وحجة واحتجاجا، وبرهانا وإعجازا.

كيف لا، والقرآن "برهان" يعلِّم الإنسان أسس الفهم والعلم والتعقل.

كيف لا، وهو "نورٌ" يضيء للأبصار والقلوب الطريق، ويمحق بسلطانه المبين الشرك، ويسلك بالناس محجة الإيمان واليقين، ويعلق قلوبهم بعظمته وكبريائه وخزائنه، ويزودهم بفقه النظر في العواقب، ويعطيهم الوعي المتجدد الكامل بحقائق الكون والحياة والإنسان والمصير.

كيف لا والقرآن "شفاء" لأمراض القلب والروح والبدن كما هو علاج لأمراض

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة ج١ ص٤٣٧.

الشعوب والأمم والحضارات.

كيف لا والقرآن "هداية" إلى نور الفطرة والإسلام، ودلالة وإرشاد إلى معالم الحق والتوحيد، وتبصير بدلائل النبوة وأسرار الإعجاز. إنه البحر الزاخر، والمعجزة الباقية، والمنبع الصافي للحكم والمعارف والعلوم والحقائق.

إن هذه الحقائق لا تستمد إلا من هذا الوحي الإلهي بخصائصه الفاعلة والدافعة والمنشئة للكيان الباطني في الإنسان والمغيرة لطبيعة مقصده ومشاغله واهتماماته. إنه الروح والنور والهدى والشفاء. "طبيعة هذا القرآن أولا أنه روح، روح له جميع خصائص الروح، تنفخ في الفرد، وتنفخ في الجماعة، وتنفخ في الأمة جمعاء روح تفعل في الكائن المخاطب جميع ما تفعل الروح، وبه ينتقل الإنسان فعلا من الموت إلى الحياة،كما ينتقل الإنسان بالروح من العدم إلى الوجود"[(١)].

ولما كان القرآن هو الروح جاء خطابه الإلهي موجَّهاً إلى كافة الأجيال البشرية إلى قيام الساعة، وشملت دعوته الكونية كل الوسائل التي تحتاجها النفوس على مر الزمان واختلاف المكان، تأثيراً وإمتاعا، وجدالا وإقناعاً، ومحاورة واستدلالاً، وخصومةً وإفحاماً، ومرونة وشدة، وقوة ورفقا.

وقد استخدم لذلك المناهج المفضلة والوسائل الفعالة،إنقاذاً للخلق من الضلال، وبناءً لصرح الإسلام، وبلوغاً للغايات المُثلى التي من أجلها بُعث خاتم الأنبياء. ومن هنا فقد اتجه الخطاب القرآني إلى أعماق النفوس ليطهرها من الشركيات والشبهات والشهوات، ويهيئها لتلقي المبادئ القرآنية السامية، والتصورات الكبرى عن

(١) الشاهد البوشيخي، شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، ص١٢.

الغيب والكون والحياة والإنسان. وذلك هو البناء الداخلي الجوهري الذي يقوم عليه العقل السليم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

لقد استطاعت دعوة القرآن الكريم أن تخاطب جوهر الكيان الإنساني عقلا وروحا ووجدانا فأحدثت التغيير الجذري والانقلاب الشامل من الضد إلى الضد: من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الضلالة إلى الهداية، ومن الجاهلية إلى الإسلام؛ إخراجا للناس من الظلمات إلى النور.

وقد بعث الله محمدا ﷺ بقوة وثقة ويقين تحدى به كل طبقات المجتمع بعدما استقرت في قلبه حقائق النبوة والرسالة فقام يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة والدلائل الكونية المثبتة للحقائق الإيمانية؛ لذا "لا يتصور أن بشرا يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة هو من أعظم دلائل كونه معجزا وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته"(١).

عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**ألا إنها ستكون فتنة، قلت فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط**

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج٤، ص٦٦.

المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"(١).

"والقرآن على الجملة هو كتاب حياة كاملة وهداية للإنسان، فهو ليس كتاب لغة وبيان وأدب وتربية وعلم وتاريخ وفنون وعلوم، وإنما هو كتاب يمثل القيم المرجعية لذلك كله"(٢).

ويتجلى من خلال النظر في طبيعة القرآن ومقاصده وخصائصه؛ أن ذلك يعود إلى مناهجه في استقطاب النفس، وتحريك الفطرة، وتوجيه القلب، وإقناع العقل، وإلى عِلْمِ الله الحكيم الخبير، بطرق الهداية، كالتفكير في ملكوت السماوات والأرض، وطرق التغيير كالبيئة الدعوية وصحبة الرسول ﷺ حيث كان هو وأصحابه يعيشون حقائق الدين ويجسدون قيمه، ويضربون أمثلة حية واقعية للأنموذج الحضاري والإنساني القرآني.

و«إذا كان القرآن بعيداً عن أي عامل خارجي- قد أثر بصفة دائمة في عقول جد مختلفة، فلا بد أن يكون ذلك راجعا إلى ما فيه من جاذبية خاصة بتوافقه الكامل مع أسلوب الناس الفطري في التفكير والشعور، وباستجابته لما تتطلع إليه نفوسهم في شؤون العقيدة والسلوك، وبوصفه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التي تقلق بالَهم، وبمعنى آخر: لا بد أنه ينطوي على ما يشبع حاجتهم إلى الحق والخير والجمال بما يجمع

(١) الترمذي، السنن، ص ٢٩٠٨.
(٢) عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب منهج السياق في فهم النص ص٢٢.

من صفات العمل الديني والأخلاقي والأدبي في آن واحد»[١].

١- تعريف الوحي:

أ- الوحي في اللغة

يفيد معنى "الوحي" في اللغة الخفة والسرعة، وتعني لفظة "الوحي" في اللغة الإعلام بخفة وسرعة،قال ابن فارس: "الواو والحاء والحرف المعتلّ: أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلْمٍ في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوَحْيُ: الإشارة. والوَحْي الكتابُ والرِّسالة. وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى علِمَهُ فهو وَحيٌ كيف كان. وأوْحَى الله – تعالى- ووَحَى. قال: وكل ما في باب الوحي فراجعٌ إلى هذا الأصل الذي ذكرناه. والوَحِيّ السَّريع: والوَحَى: الصَّوت"[٢].

كما نجد أن الوَحْيُ هو: "الإشارةُ، والكِتابَةُ، والمَكْتُوبُ، والرِّسالَةُ، والإِلْهامُ، والكَلامُ الخَفِيُّ، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ، والصَّوْتُ يَكُونُ في النَّاسِ وغَيْرِهِم، كالوَحَى والوَحَاةِ، ج: وُحِيٌّ. وأوْحَى إليه: بَعَثَهُ، وأَلْهَمَهُ"[٣].

إذن الوَحْيُ هو: "الإِشارة والكتابة والرِّسالة والإِلْهام والكلام الخَفِيُّ وكلُّ ما أَلقيته إِلى غيرك. يقال: وحَيْتُ إِليه الكلامَ وأَوْحَيْتُ. والوَحْيُ: المكتوب والكِتاب أَيضاً، وعلى ذلك جمعوا فقالوا وُحِيٌّ مثل حَلْيٍ وحُلِيٍّ.

وأَوْحى إِليه: بَعَثه. وأَوْحى إِليه: أَلْهَمَه. وفي التنزيل العزيز: وأَوْحى ربك إِلى النَّحْل، وفيه: بأَنَّ ربك أَوْحى لها؛ أَي إِليها، فمعنى هذا أَمرها، ووَحَى في هذا المعنى،

(١) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٧٠.
(٢) أحمد بن فارس،مقاييس اللغة ج٦ ص٩٣.
(٣) محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط ج٤ ص ٤٩٩.

وفي التنـــزيل العزيز: فأَوْحى إِليهم أَنْ سَبِّحوا بُكْرَة وعَشِيّاً؛ وقال: فأَوْحَـــتْ إِلينـــا والأَنامِلُ رُسْلُها، وقال الفراء في قوله، فأَوْحى إليهم: أَي أَشار إِليهم"[1].

ب- الوحي في الاصطلاح:

الوحي في الشرع: "هو تبليغ الله – سبحانه وتعالى- الأنبياء الدّين و الشرع"[2].

لقد وردت لفظة "الوحي" في القرآن الكريم على وجوه مرتبطة بالدلالـــة اللغويـــة أبرزها ثمانية وجوه:

الوجه الأول: قد وردت بمعنى الإلهام الفطري للإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (القصص: ٧).

وفي قولـــــه تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (المائدة: ١١١).

الوجه الثاني: قد وردت بمعنى الإلهام الغريزي للحيـــوان قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل: ٦٨).

والإلهام في الوجهين حالة خفية، وسر من أسرار الله – تعالى- في التعامل والأمـــر والتكليف والاختيار.

الوجه الثالث: قد جاءت بمعنى وسوسة الشـــيطان كمـــا قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١١٢).

(١) محمد بن مكرم، لسان العرب، ج١٥ ص ١٧٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١ ص٩.

الوجه الرابع: قد جاءت واردة بمعنى الإشارة السريعة رمزا وإيحاء كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ (مريم: ١١).
قال مجاهد وغيره: أي: أشار.

وقد سجل القرآن وحي الله إلى ملائكته أمرا أو إلهاما أو كلاما كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ﴾ (الأنفال: ١٢).

الوجه الخامس: **قد** جاءت واردة بمعنى الإرسال، من ذلك قوله – سبحانه-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ (النساء: ١٦٣)، قال الطبري: يعني- جل ثناؤه-: إنا أرسلنا إليك، يا محمد، بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائر الأنبياء.

الوجه السادس: قد جاءت واردة بمعنى الأمر، من ذلك قوله – سبحانه-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ ﴾ (الزلزلة: ٥).

قال مجاهد: أي: أمرها. وقال القرظي: أمرها أن تنشق عنهم.

الوجه السابع: قد جاءت واردة بمعنى بمعنى الإعلام في المنام، من ذلك قوله – سبحانه-: **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ ۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١ ﴾ (الشورى: ٥١).

قال البغوي: يوحي إليه في المنام أو بالإلهام. وقال مجاهد: قال مجاهد: ينفث في قلبه فيكون إلهاماً.

الوجه الثامن: قد جاءت بمعنى الإلقاء، وهذا المعنى هو الأصل في معنى الوحي، وعلى هذا قوله – سبحانه–: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٩).

قال الطبري: أي: ألقي إلي بمجيء جبريل عليه السلام به إلي من عند الله عز وجل.

والمحقق في هذه الدلالات يدرك أن المعنى الجامع الذي تؤول إليه الوجوه كلها هو "الإلقاء" بمعناه اللغوي وقد تكون له طرق مختلفة كالإشارة أو الوسوسة أو العبارة أو ما يحصل في المنام من الرؤى الصادقة: "ويُقالُ للكلمة الإلهيّةِ الَّتي تُلْقَى إلى أَنْبِيائه وأَوْلِيائه وَحْيٌ، وذلك أَضْرُبٌ حَسْبَ ما دلَّ عليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (الشورى: ٥١).

وذلك إِمّا برَسُولٍ مشاهَدٍ تُرَى ذاتُه ويُسْمَعُ كلامُه كتَبْليغ جبريلَ عليه السلام للنبيِّ ﷺ فى صُورةٍ مُعَيَّنة، وإِمّا بسَماع كلامٍ من غير مُعايَنَةٍ كسَماع مُوسَى عليه السلام كلامَ الله – تعالى–، وإِمّا بإِلقاءٍ فى الرُّوْع كما ذَكَرَ ﷺ: "إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوْعِى"، وإِمّا بإِلْهامٍ نحو قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ (القصص: ٧) إِمَّا بتَسْخِير قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (النحل:٦٨) وإِمّا بمَنامٍ"[1].

(١) مفرات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ج٤ ص٢٩١.

وهكذا فالوحي الكتابة، والوحي الإشارة، والوحي الإلهام، والوحي الإعلام بخفة وسرعة، والوحي الوسوسة، والوحي الأمر، والوحي الإلقاء، لكنها كلها ترجع إلى أصل واحد "الواو والحاء والحرف المعتل -الألف المقصورة-، أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره، يعني الإلقاء بخفية أو الإلقاء من غير خفية إلى غيرك"... إلى أن قال: "وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان، وكل ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه"(١).

والوحي هو الشيء الموحى به على وزن اسم المفعول ولا يكون هذا حاصلا إلا في كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه كصحف إبراهيم وموسى وكالزبور والتوراة والإنجيل والقرآن؛ ومن ثَمَّ فإذا أطلق الوحي مجردا من أي قرينة، فهو الكلمة الإلهية الخاتمة لكل الكتب السماوية، والناسخة لكل الشرائع، والهادية لكل البشر، ولا يصدق هذا المدلول إلا على القرآن الكريم، وقد وصف بأوصاف، ونعت بنعوت دالة على علو قدره ومنزلته وآثاره، فما نعوت القرآن في القرآن؟

٢- إحصاء لفظ الوحي في القرآن

لقد ورد مصطلح (الوحي) في القرآن الكريم في واحد وسبعين موضعاً، ورد في أربعين منها بصيغة الفعل، من ذلك قوله - تعالى-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل: ٦٨).

وورد بصيغة الاسم في واحد وثلاثين موضعاً، من ذلك قول الباري ﷻ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه: ١١٤).

---

(١) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج٦ ص ٧٠.

٣- أصناف الوحي وحالاته:

لا شك أن أكثر أنواع الوحي تداولا ووقوعا هو أن يتم عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتندر الحالات التي يكون الوحي فيها تكليما مباشرا من الله - تعالى- لنبي من أنبيائه – سبحانه وتعالى-. وذلك لحكم ربانية بليغة. فما الكيفيات التي حصل بها الوحي؟

إن الاستقراء والنظر في النصوص الشرعية يدلنا على صنفين كبيرين من أصناف الوحي:

أولا: الوحي إلى أمين الوحي:

من المعروف أن النصوص الصريحة تبين أن الله - تعالى- كلم ملائكته تكليما مباشرا وبذلك جازوا أعلى الرتب والمقامات الرفيعة والقرب، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠** ﴾ (البقرة: ٣٠ – ٣١).

كما وردت في القرآن لفظة "الوحي" في محاوراته - سبحانه- مع الملائكة الكرام **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢** ﴾ (الأنفال: ١٢).

ثم وردت بمعنى مهمة الوحي المنوطة بالرسول الملكي جبريل عليه السلام **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥** ﴾ (الشعراء:١٩٣- ١٩٥).

وتظهر أهمية جهاز القلب في استقبال الوحي واستيعابه والوعي بحقائقه وتبعاته

والقيام بحقوقه في هذه الآية صرح القرآن على قلب محمد وفي ذلك ما فيه من الدلالة على أن القلب هو جهاز التحكم والتصرف والقيادة في سائر الملكات الأخرى، فإذا وعى القلب وثبت،تبعته كل الأجهزة الأخرى في ذلك:"أَيْ يَتْلُوهُ عَلَيْكَ فَيَعِيهُ قلبك. وقيل: ليثبت قَلْبِكَ"[1]. وفي هذا المقام يبدو الفرق بين قلب وقلب ونفس ونفس؛ فمن النفوس المصدق الطاهر، ومنها المكذب الحاقد.

وهنا تنكشف خبايا النفوس، وتظهر الأحقاد، فإذا اليهود يتمادون في مقت جبريل وعداوته كما فعلوا مع خاتم الرسل- صلى الله عليه وسلم-، وإذا القرآن يبادر القرآن إلى الكشف عن خصالهم السيئة وخباياهم مصرحا أن التنـزيل كان على القلب؛لأنه مركز القيادة والتوجيه والتحكم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (البقرة: ٩٧).

ثانيا: الوحي إلى الأنبياء:

وهذا الصنف من الوحي يأتي على ثلاث حالات: وحي الرؤيا، ووحي الكلام المباشر من وراء حجاب، ووحي الرسول الملكي إلى الرسول البشري. وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

أ- الوحي بلا وساطة، وهو نوعان:

١- الرؤيا الصالحة:

لا جرم أن رؤيا الأنبياء حق، وأنهم معصومين، ولا تستطيع الشياطين أن تتمثل بهم، وقد كان ذبح إبراهيم لابنه وحيا عن طريق الرؤيا المنامية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ

(١) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٣ ص١٣٨.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ (الصافات:١٠٢).

كما بدأت نبوة محمد ورسالته بالرؤيا الصادقة، وقد استمرت هذه الحالة ستة أشهر تدريبا وتهيئة وإعدادا لتلقي الوحي وتبليغه وحفظ حقوقه والقيام بأوامره مما يدعونا إلى النظر والتبصر والتفكير القاصد واستخلاص العبرة في أن هذه الممهدات تدل على قرب الرسالة ورحمة الله بالخليقة ببعثة النبي الخاتم وتكريم البشرية بهذا القرآن. ورغم صدق الرؤى النبوية وقوة دلالتها؛ فإنه من المؤكد أن القرآن العظيم لم يرد منه شيء على سبيل الرؤيا بل هو وحي يوحى يتنزل به أمين وحي السماء إلى أمين وحي الأرض قرآنا يتلى بنص قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ (الشعراء:١٩٣).

وفي ذلك ما فيه من دفع الشبه، ودحر المنكرين، وتوكيد المعجزة، وتوضيح عصمة محمد ﷺ.

٢- التكليم من وراء حجاب:

لقد كلَّم الله بعض أنبيائه ورسله مباشرة كما هو الحال مع نبي الله موسى عليه السلام قال - تعالى-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ (النساء: ١٦٤).

كما هو الحال في قوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ (الأعراف: ١٤٣).

الوحي بوساطة:

وهذا النوع يتجلى من خلال وحي القرآن إلى جبريل عليه السلام وتبليغ جبريل ما أوحي إليه إلى خاتم الرسل ﷺ وأما ما سوى القرآن من أصناف الوحي فقد يبلغه ملك آخر كما ورد في بعض الأحاديث وذلك في نزول القرآن على سبعة أحرف حيث اشترك ميكائل مع جبريل في طلب التخفيف عن الأمة وكما حصل في فضل سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

وقد أتاه الوحي على نمطين: جبريل بصورته الملائكية وله صوت مثل صلصلة الجرس وهو أشد النمطين فينكشف عنه وقد وعى ما قيل له. وأما النمط الثاني فعلى صورة رجل يكلمه فيعي ما يقول ورغم شدة الحالين وصعوبة الموقفين؛ فإن الضبط والوعي لما يرد عليه من وحي كان هو الصفة الدائمة والمشهد القائم، وكان ﷺ يتهيأ ويستعد لما سيلقى عليه من قول ثقيل وعمل جليل **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥** ﴾ (المزمل: ٥).

وكان ﷺ يتابع جبريل ويحاكيه بعناية واهتمام وعزم مخافة أن يفوته شيء من الوحي وما فيه من مهمات وتكاليف **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩** ﴾ (القيامة: ١٦ -١٩).

لذا نهي عن العجلة بالقرآن قال - تعالى-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤** ﴾ (طه: ١١٤).

٤- سياقات ورود مصطلح الوحي:

لقد ورد هذا المصطلح في القرآن في اثنين وتسعين موضعا ولا شك أن السياق هو أعظم مرجعية لضبط الدلالة وتحديد المراد من الكلمات القرآنية ولا نريد التوسع هنا وإنما نقف عند أهم السياقات مع ذكر مثال واحد لكل سياق مهم.

١- إنه يرد بالمعنى الخاص للوحي كالوحي إلى الأنبياء، كما قال الله ﷻ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ * إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ ﴾ (النساء: ١٦٣).

٢- أنه يرد بالمعنى العام للوحي كالوحي إلى بعض بني آدم ومنه الوحي إلى بعض الأنبياء قبل النبوة إلهاما وإيحاء لا وحي بلاغ حيث كان هذا الوحي قبل بعثته، مثاله: قول الله ﷻ عن يوسف عليه السلام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ ﴾ (يوسف: ١٥).

٣- أنه يرد وحي إلى بعض أمهات الأنبياء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ (القصص: ٧).

٤- أنه يرد وحيا إلى الحواريين وأمرا لهم وهم خاصة أصحاب عيسى عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١ ﴾(المائدة: ١١١).

٥- أنه يرد وحي إشارة ورمز كما في قوله- تبارك وتعالى- عن زكريا عليه السلام حينما قال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم: ١١).

٦- أنه يرد وحيا إلى الملائكة على جهة التبليغ كما في قوله- تبارك وتعالى-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾(الحج: ٧٥).

٧- أو على جهة التكليف كما في قوله: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال: ١٢).

٨- أنه يرد وحيا إلهاميا خاصا كما قال الله عز وجل عن النحل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل: ٦٨).

٩- أنه يرد وحيا تسخيريا خاصا ببعض الجمادات كقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(فصلت: ١١ – ١٢).

١٠- أنه يرد وحيا من الشياطين إلى أوليائهم كما في قوله- تبارك وتعالى-: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٢).

١١- أنه يرد بمعناه الخاص وحيا إلى الأنبياء والرسل، وهو إعلام الله لأنبيائه ورسله بما يريد إبلاغه لهم من شرع أو كتاب بالكيفية التي يريدها.

٥- نعوت الوحي في الوحي:

ولعلو شأنه، وخطورة أمره، وافتقار الناس إلى هدايته ورحمته وشريعته ومنهاجه؛ سُمِّي بأسماء ووُصِف بأوصاف دلت جملة وتفصيلا على تلك الأغراض والقيم النبيلة. ولعظمته وشرفه وفخامته ومنزلته السامية وشمول مقاصده وقوة خصائصه ولزوم أداء حقوقه وحاجة الناس إليه في معاشهم ومعادهم كثرت أسماؤه وأوصافه الدالة على تلك المعاني والمناحي قال الجاحظ: سَمَّى الله كتَابه اسماً مخالفاً لِما سَمَّى العربُ كلامهم على الجملة والتفصيل: سَمَّى جملته قرآناً كما سَمَّوْا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية. وللقرآن أسماء وأوصاف تدل على مكانته وشرفه وعظمته وقوته وخصائصه ووظائفه ومقاصده وسنذكر منها أمثلة دالة، ولا نحيط بها ذكرا في هذا المقام: قال القاضي أبو المعالي عُزيزي بن عبد الملك رحمه الله: "اعلم أن الله – تعالى– سمّى القرآن بخمسة وخمسين اسماً منها أمثلة:

(١) فقد سَمَّاه هدىً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾ (لقمان: ٣).

(٢) وسماه رحمةً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾(يونس:٥٨).

(٣) وسماه فرقاناً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ (الفرقان: ١).

(٤) وسماه شِفَاءً فقال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ﴾ (الإسراء: ٨٢).

(٥) وسماه موعظةً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ (يونس: ٥٧).

(٦) وسماه ذِكْراً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠ ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

(٧) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ ﴾ (الواقعة: ٧٧ – ٧٨).

(٨) وسماه عليّاً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ ﴾ (الزخرف: ٤).

(٩) وسمّاه حكمةً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ ﴾ (القمر: ٥).

(١٠) وسماه حكيماً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ ﴾ (يونس: ١).

(١١) وسماه مُهَيْمِناً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ٤٨ ﴾ (المائدة: ٤٨).

(١٢) وسماه مُبارَكاً قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾(ص: ٢٩).

* * *

المبحث الثاني
مفهوم العقل، وأثر القرآن فيه، وتربيته له، وتوظيفه في إثبات التوحيد

أ- التعريف اللغوي للعقل:

مفهوم العقل:

لا شك أنه بالنظر إلى المعاني اللغوية المستمدة من المعاجم نجد أن مـــادة "عقـــل" وردت تحمل العديد من المعاني ومنها كالآتي:

المعنى الأول: الحبس ومنه العقل: الحابس عن ذميم القول، "(عقل) العين والقـــاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عظمه على حبسة في الشـــيء أو مـــا يقـــارب الحبسة. من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل"(١).

المعنى الثاني: العقل نقيض الجهل"العقل: نقيض الجهل، يقال عقل يعقل عقـــلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انـــزجر عما كان يفعله. وجمعه عقول، ورجـــل عاقـــل وقوم عقلاء وعاقلون، ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل"(٢).

المعنى الثالث: الحجر والنهي: "العقل الحجر والنهى ضد الحمق والجمع عقول، وفي حديث عن عمرو بن العاص قال: تلك عقول كادها بارئها أي أرادها بسوء. عقـــل يعقل عقلا ومعقولا"(٣).

---

(١) أحمد بن فارس، مقاييس اللغةج٤ ص٦٩ مادة (عقل).
(٢) المصدر السابق ج٤، ص٦٩. نقلا عن معجم العين للفراهيدي.
(٣) محمد بن مكرم، لسان العربج١١، ص٤٥٨. مادة (عقل).

المعنى الرابع: التثبت في الأمور والتمييز: "وقال: العقل القلب والقلب العقل، ومن المعاني سمي العقل عقلا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، ومنها: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان"[(١)]. وقد أورد ابن منظور العديد من المعاني للعقل، و لم يفرق بينه وبين القلب[(٢)].

وفي كل الحالات نجد لفظة "عقل" دالة على معان من أبرزها الحبس والتقييد، قال ابن فارس: "العين والقاف واللام أصل واحد منقاس، يدل على حبسة في الشيء، أو ما يقارب الحبسة"[(٣)].

والعقل المنع قال في تهذيب اللغة: "سمي عقل الإنسان الذي فارق به الحيوان عقلا؛ لأنه يعقله، أي يمنعه من التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه"[(٤)].

ولهذا يمنع النفس من فعل ما تهواه، ماخوذ من عقال البعير، المانع له من السير حيث شاء، وهو أصل لكل علم، وسمي عقلا؛ لأنه يعقل صاحبه من العدول عن سواء السبيل"[(٥)].

ب- التعريف الاصطلاحي للعقل:

واصطلاحا: "غريزة يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب"[(٦)].

---

(١) المرجع السابق ج٤ ص مادة (عقل).

(٢) المرجع السابق، ج٤ص٦٩. مادة (عقل).

(٣) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة ج٤ ص٦٩ مادة (عقل).

(٤) محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، ص ١٥٦. مادة (عقل).

(٥) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج١ص١٥٩.

(٦) محمد إبراهيم الفيومي، النزعة العقلية عند الامام الشافعي ص ٤٢٣.

هو "ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات"(١).

وهو"جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله، وهو جوهر روحاني، خلقه الله متعلقا بالبدن"(٢).

وهو "مجموع السلوك الذي يتضمن التذكر والتفكير والإدراك، وكثيرا ما يستعمل مرادفا للخبرة الشعورية"(٣).

والعقل عقلان: عقل بالقوة وهو العقل النظري القادر على الفهم والتخيل والتجريدن وعقل بالفعل وهو ما يكتسبه الإنسان من التجربة والمعرفة الحسية.

والعقل مناط التكليف، ووسيلة التعرف إلى الله عن طريق النظر والاستدلال، وتناط به المثوبات والعقوبات والمسؤوليات، وأحد المقاصد الخمسة التي أوجب الإسلام حفظها، وهو سبب التشريف والتكريم، وهو المرجع الأول في العلوم الاجتهادية كسد الذرائع والاستحسان والمصالح المرسلة، وهو الطاقة القادرة على اكتشاف السنن الإلهية وتسخيرها للإنسانية.

ويقع على أربعة معان(٤):

١- الغريزة التي تميز الإنسان عن الحيوان.

٢- العلوم الضرورية.

٣- العلوم النظرية.

---

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط ص ٦١٧ مادة (عقل).

(٢) عبد الرحمن الزبيدي، مصادر الفكر الديني والفلسفي ص٣٠٢.

(٣) تطور الفكر التربوي، فيصل الراوي رفاعي ص١٠١.

(٤) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه: ٢/ ٢٠.

٤- الأعمال التي تكون بموجب العلم لذا قال الأصمعي: العقل: الإمساك عن القبيح و قصر النفس و حبسها على الحسن[١].

يتجلى أن كل الآيات التي وردت فيها مادة العقل جاءت بصيغة الفعل المضارع بأسلوب الاستفهام مثل "أفلا تعقلون" أو بأسلوب الترجي "لعلكم تعقلون" أو بأسلوب التقرير "لقوم يعلمون" أو بأسلوب النفي "لا يعقلون".

وفي هذه الأساليب المنوَّعة دعوة عظيمة إلى التأمل والنظر والتفكر والاعتبار وتوظيف مدركات العقل لتجسيد نتائج الاستدلال في واقع الإنسان من خلال تعامل العقل مع الفطرة والطبيعة والكون والحياة والكشف عن أسرار الخلق ودلائل الوجود وذلك بالنظر ف ملكوت السماء والارض، وفي تعاقب الليل والنهار، ومشاهد الموت والحياة: "نحن أمام حركة في الطبيعة، تثير النفس، وتدفعها إلى التأمل والتصور والتخيل، وهذه الحركة تبدو في ثنائية الطبيعة: في الليل والنهار، في الشروق والغروب، في الحياة والموت؛ فالقرآن يشد الإنسان إلى هذه الحركة، ويدعوه إلى تتبعها، وفهم ما تنطوي عليه من أسرار الخلق والإبداع"[٢].

ورغم ما للعقل من قوة وجبروت وطاقات هائلة؛ فإنه يبقى مرتبطا بالحس ارتباطا قويا" وتتضح العلاقة بين العقل والحواس في ما يلي:

١- أن العقل مرتبط بالحواس، ويعمل من خلال التجارب الحسية.

٢- أن حكومة العقل نافذة على الحواس وتحول المدارك الحسية إلى معارف على سبيل اليقين.

(١) ابن سيده - المخصص: ١٦/١.

(٢) الشيخ أحمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، ص٥٧.

٣- أن العقل غير قادر على المقارنة التصنيف والحكم في مجال المحسوسات دون المعرفة الحسية

٤- أن الحواس تدرك المشاهدات إدراكاً جزئياً بينما يقوم العقل بتجريد المعاني والربط بينها وبين التصورات والمفاهيم والأنساق المعبرة عن العلوم والمعارف والمدركات العقلية.

ولأهمية العلاقة بين العقل والحس ووظائفهما في المعرفة والعلم والتسخير الكوني وبيان حجج الله البالغة فقد تكررت دعوة القرآن اللافتة إلى استشعار النعم والمنافع والمعاني المتعلقة بهما ونختصر في ذلك على أنموذجين:

الأنموذج الأول: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النحل: ٧٨).

الأنموذج الثاني: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٦).

- أثر الوحي في العقل:

لقد أحدث القرآن نقلة هائلة في العقل، فنقله من التعدد إلى التوحيد، ومن المحسوس إلى المعقول، ومن التشخيص إلى التجريد، ومن الجهالة إلى العلم،و من الوثنية إلى الإسلام، ومن الأمية إلى الحضارة، ومن التعود إلى التبصر، ومن الإعراض إلى التدبر، ومن البلادة إلى التفقه، ومن البديهة إلى التفكر، ومن الحدس إلى التجربة، ومن التقليد إلى الاعتبار.

لا يبدو العقل في القرآن ذا وظيفة واحدة كالقيام بالواجبات بل تترقى أعماله

وتتنوع من التفكر إلى الاستنباط، ومن القراءة إلى الاجتهاد، ومن الوعي بعالم الشهادة إلى التعاطي مع عالم الغيب والاستجابة لخطاب الرسل:"أوضح القرآن للعقل وظائف أكبر وأرقى من مجرد التكليف؛ فإذا نحن أمام العقل الوازع، والعقل المدرك، والعقل السابح في الملكوت، والعقل الناقد، والعقل المجدد، والعقل المتدبر، والعقل المبدع الذي يمارس الاستنباط، ويخوض غمار العلوم الاجتهادية ولا يتوقف عن العطاء والتألق والتجاوز وقد عبر القرآن عن تلك المناشط بمصطلحات عميقة الدلالة، واسعة الأثر، قيمة التأثير كالذكر والتذكر، والفكر والتفكر، والنظر والتبصر، والفقه والتفقه، والتدبر والتأويل؛ لتشارك العقل في وظائفه وآثاره، وتتميز عنه ببصماتها الخاصة"[(١)].

كما نوَّه القرآن الكريم بشأن العقل والتفكر الموصل إلى الفهم الصحيح، وتواردت فيه نصوص جمة وضعت له الإطار النظري والحدود العامة الضابطة لحركته ونشاطه كما ذَمّ القرآن الذين يعطلون عقولهم عما خلقت لأجله من التفكر السليم والإبداع المعرفي واكتشاف المجهول وفق الضوابط الرصينة التي تحرر العقل من القيود والعوائق والأغلال. فكم هو المجال واسع، والميدان بكر، والعقل ذو طاقات لا تحد، وعالم السنن الكونية مسخر أمام التجارب الإنسانية الخلاقة. وتتجلى العلاقة بين الوحي والقرآن فيما يلي:

١- فهم تلك الحقائق والاهتداء الى معرفة الله من خلال النظر في آيات الله في الكون والانفس والآفاق.

٢- يميز العقل بين المعجزات الحقيقية وما يلتبس بها من مظاهر الشعوذة والدجل ويدرك أوجه دلالة المعجزة على صدق من جرت على يديه.

(١) الشيخ محمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص١٩٧-١٩٨.

٣- يفهم نصوص الشرع ويستنبط الاحكام لما يجد من احداث.

٤- هناك مساحه كبيرة من الاخلاق جعل الحكم فيها للعقل في ضوء الكتاب والسبة.

٥- فتح الإسلام الباب واسعا للعقل كي يجول في آفاق الكون الفسيح مستكشفا متأملا، وشجعه على أن يبتكر ويخترع من وسائل الحياه ما توصله إليه خبراته، ووجهه إلى الاستفادة من تجارب الآخرين، وأن ينتفع بتراث السابقين ومعارف اللاحقين(١).

وقد أودع القرآن الكريم هذا الكون البديع من الحجج القاطعات والبراهين الساطعات والأسرار الغيبية ما يجعل العقل في حركة دائمة لا تتوقف كما تجلى نوراً للمؤمنين، وبرهاناً للمتعقّلين، ومنهاجاً للعاملين، ونبراسا للسائرين، وهدى للمتقين، وحجة على الكافرين، ومحجة للقاصدين.

«أكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم؛ ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيام، خُصَّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر»(٢).

إن اشتمال القرآن الكريم على المعجزة العقلية الكبرى التي تتحدى كل عصر وكل جيل، هي الأساس في عالمية الدين وختم النبوة. وقد تجلى القرآن الكريم حجة ربانية تُسْكِت الألسنة، وتُبَصِّر ذوي الألباب ولا يفقهها إلا خواص المتفكرين قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾(سورة ص٢٩).

---

(١) أحمد علي الجلي، دراسات في العقيدة الإسلامية ص٢٦-٢٧.

(٢) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن: ١/١٤٨-١٤٩.

واستنادا إلى هذا النص نجد أن القرآن حجة الله البالغة بما له من خطاب منطقي للعقل مصحوب بالدليل يهدي للتي هي أقوَم، ويبصر الإنسان بالمحجة البيضاء بتدبر هادئ ونظر مستنير، وهذا ما أشار إليه الحارث المحاسبي بقوله مخبرا عن العقل: « فجعله معدن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط العلم، ومعقل الفهم ونور الأبصار»(١).

وإذا نظرت في القرآن الكريم وجدت أغلب السور القرآنية تدعو إلى التفكر والتدبر والتفقه صراحة وضمنا، وإجمالا وتفصيلا،، حتى نستطيع أن نقول: إن الدعوة إلى التفكر في أسرار الكون ومكوناته ومشاهده وما لها من علاقة بالغيب خاصية مركزية من خصائص الخطاب القرآني، قال – تعالى– داعيا إلى التفكر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ (سبأ: ٤٦).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الأنعام: ٥٠).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الروم: ٨).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر: ٢١).

(١) الحارث المحاسبي،العقل وفهم القرآن، ص٦٦.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنعام: ٣٢).

وأما العقل والدعوة إليه وبيان ضرورة الأخذ به وذم المجانبين له، فقد جاءت هذه في آيات من القرآن الكريم بلغت الخمسين، منها قوله – تعالى–: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٢)، وقوله – تعالى– ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنعام: ٣٢)، وقوله جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ (البقرة: ٢٤٢).

لقد تجلى أثر القرآن في بناء العقل في دعوة العقل إلى النظر و التفكير والاجتهاد والاستنباط، وتحريره من العوائق والشواغل والشوائب، وتشجيعه على اكتشاف المجهول، وفقه السنن الإلهية، وتوظيف الحواس والتجارب في تكوينه، وتزويده بالمعارف والخبرات والمهارات بل القرآن جعل التفكير فريضة إسلامية لما يترتب عليها من المنافع والنتائج والآثار المهمة في النهوض والشهود والجودة الشاملة الحاصلة من تكامل الوحي والعقل رغم اختلاف المنزلة والمسافة والأفق. ومن توجيهات الوحي وآثاره الجلية في العقل ما يلي:

١: **الدعوة الصريحة إلى التفكر والنظر وطلب المعرفة والعلم**: فقد حض القرآن على النظر العقلي بنصوص كثيرة، ودعا إلى التفكر و إعمال العقل في جميع مجالات الوجود الكونية والنفسية، واستخدم في ذلك ألفاظاً متنوعة وعبارات شتى: كالتعقل والنظر والتبصر والتدبر والتفكر وغيرها من العبارات التي تشير إلى ملكة التفكير في الإنسان.

٢: **تحرير العقل من عوائق التفكير**: سعى القرآن بداية إلى تحرير العقل وإزالة أي

عائق أو قيد يحول بينه وبين أن يقوم بوظيفته، من تقليد أعمى أو اتباع للهوى وميل إليه من غير تبصر، أو أخذ بالظن من غير يقين.

أ – **ذم التقليد**: التقليد يتضمن إلغاء العقل وتعطيله عن أداء وظيفته؛ لذا ذمه القرآن، ونعى على أولئك الذين رفضوا الحق المبين، لا لشيء إلا لتمسكهم بما كان عليه آباؤهم من خرافات وأباطيل، فقطعوا على أنفسهم طريق العلم، وحرموا أنفسهم نعمة الفهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

ب– **ذم الهوى**: ذم القرآن اتباع الهوى كما ذم التقليد الأعمى، وبين أن اتباع الهوى قرين بالظلم والضلال والإفساد في الأرض، وفي الوقت نفسه مضاد للعلم والهدي الالهي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١١٩).

ج– **اجتناب الظن**: ذم القرآن الكريم اتخاذ الظن طريقا للعلم واليقين، وأكد أن الظن لا يفيد يقينا ولا علما، ولا يغني من الحق شيئا كما ذم القرآن متبعي الظن، ووصفهم بالجهل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ (النجم: ٢٧).

٣: **الدعوة الى الحوار والجدال وطلب البرهان**[١]: اعتمد القرآن الحوار والجدال البناء أسلوبا أصيلا في خطابه للناس قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

(١) أحمد على الجلي، دراسات في العقيدة الإسلامية ص٢٨–٢٩.

وفي الوقت نفسه ذم الجدال الذي لا يستند الى الـــدليل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ﴾ (الحج: ٨).

لذا نجد أحد المفسرين يقف عند معنى العقـــل والتعقـــل في قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

حيث يقول: "أي ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون؛ لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة"(١).

كما حث القرآن الكريم إلى جانب التفكر والتعقل على التفقـــه، وذَمَّ الـــذين لا يفقهون وعاب طريقتهم، وأوضح أن التفكر هو الوسيلة المثلى للفهم الصحيح لحقائق الأمور، واكتشاف المجهول وتسخير السنن، فمن ذلك قولـــه - تعـــالى-: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنعام: ٦٥).

وقوله - تعالى- في الذين عطلوا أجهزة الفقه التي وهبهم الله إياها وشبههم بالأنعام ضلالة وغفلة وجهالة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ويمكن أن نتساءل إحصائيا عن مصطلحات "العقل"، و"القلب"، و"الفكر"، و"أولي الألباب"، و"الفؤاد"، كم وردت في القرآن الكريم؟ فنجد أن مشتقات الجذر اللغـــوي لمادة العقل قد بلغت ٤٩ مرة، كما بلغت مشتقات الجذر اللغوي لمادة القلب مذكورة

(١) محمود بن عمر الزمخشري، الكشّاف ص٤٦٧.

في ١٣٢ آية، ومادة الفكر ١٩ مرة، ومادة أولي الألباب ١٦ مرة، كما تكررت كلمة "الفؤاد" ٥ مرات، هذا فضلا عما ورد من ألفاظ كالنظر والاعتبار والتدبر(١).

إن هذا الحجم الكبير من الآيات القرآنية الداعية إلى استخدام العقول والنظر في ملكوت السماوات والأرض تلبي حاجة موضوعية في النفس الإنسانية، ألا وهي استخدام الحجاج الإقناعي، ليعتبر الإنسان بدلائل الحق الناطقة ومشاهد الكون الصامتة على ما وراء هذا الكون من حكمة عظيمة ومقصد بليغ.

ولا يسمح لنا المقام لذكر التفاصيل المتعلقة بمادة "العقل" و"الفكر" و"اللب" في القرآن الكريم، وإنما سنكتفي ببعض الأمثلة للتوضيح والاستدلال.

فمن ذلك قوله – تعالى– في ذكر دلائل البعث بعد الموت وإفحام المعاندين من اليهود المتعصبين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (البقرة: ٧٣).

فهذا مشهد عملي من مشاهد قدرة الله الكاملة في البعث بعد الموت، ورجوع الروح إلى الجسد؛ ليقوم بوظائف الحركة والوعي والتعقل التي سلبت منه لحظة، ثم عادت إليه كأشد ما كانت، وما الهدف إلا الاعتبار والاستفادة من قدرته وسننه، فإذا تدخل نظام القدرة تعطل نظام السنة كما في نار إبراهيم، حيث فقدت النار نظام السنة بأمر القدرة فكانت بردا وسلاما على إبراهيم، وقل مثل ذلك في خلق عيسى وفي بحر موسى كما نجد القرآن تحدث تفصيلا عن آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته وعلمه المحيط، وامتدح العقل الواعي الذي تحرك فيه هذه المشاهد

(١) محمد علي بن حمزة، التعقل في مجال العقيدة، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٣٠٥، ديسمبر ١٩٨٩.

الكونية معاني الإيمان والطاعة والاستسلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وفي معرض ذم الذين عطلوا طاقة الفكر وقلدوا الآباء في الفهم والحياة رغم جهالتهم وضلالتهم وعماهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وفي سياق الغفلة عن الاعتبار بأيام الله والعمى عما أصاب المكذبين من الزجر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٤ — ٣٥).

ولتوضيح هذه المعاني أكثر، نضرب أمثلة موجزة عن مصطلح التفكر ومادته، مع الإشارة إلى اختلاف سياقاته الدلالية في القرآن الكريم حسب القضايا التي يعالجها القرآن في آفاقه المطلقة، فمن ذلك التفكر مذكورا في سياق مظاهر قدرة الله – تعالى- في إتقانه المخلوقات واختلاف أصنافها ووظائفها ودلالاتها وما يشير إليه ذلك من التفكر الذي هو أهم سمات الإنسان الذي أهّله الله لاستقبال رسالاته السماوية والقيام بمقتضيات خلافته في الأرض توحيدا وإصلاحا وعدلا وإحسانا، ودعوة وتبليغا، وعلما وشهودا، وجهادا واجتهادا، قال – تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الرعد: ٣).

ونجد القرآن الكريم يذم أنموذجا من الناس لم يستفد من أحداث التاريخ، و لم يعتبر بهلاك الأمم ولا بسنن الله الكونية في الأنفس والآفاق عبر الزمان والمكان والإنسان، ولذلك يعرضها مقرونة بالدعوة إلى التفكر والعظة والاعتبار قال – تعالى-: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦).

ونستشهد بمثال أخير على أهمية التفكر وتعدد سياقاته في القرآن الكريم، فمن ذلك ما أنشأه الله – تعالى- بفضله وقدرته من أواصر المودة والرحمة والمحبة بين الزوجين، فما الذي جعلها مودة ورحمة و لم يجعلها حقدا وكراهية وصراعا مريرا يعذب النفوس ولا يهدأ ؟ قال – تعالى-: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(الروم: ٢١).

يقول الألوسي مشير إلى عظيم قدرة في هذه الآية: "إِنَّ فِي ذلِكَ أي فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة والرحمة، فهو إشـــارة إلى جميع ما تقدم، وقيل: إلى ما قبله وليس بذاك، وما فيه من معنى البعد مع قرب المشـــار إليه للإشعار ببعد منـــزلته لآياتٍ عظيمة لا يكتنه كنهها، كثيرة لا يقادر قدرها لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[١].

(١) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١١ ص ٣٢.

نستفيد من مجموع السياقات القرآنية التي وردت فيها مادة "عقـل" بتصـاريفها المختلفة مجموعة من المعاني والمهارات والقيم والكفاءات التي هي أهم دلالات العقل في القرآن الكريم، وهكذا.

فهو إجراء سلوكي يضبط حضور الجماعة في المجتمع.

وهو مجموعة إجراءات ذهنية من شأنها أن تحسب لكل كلمة حسابها ومآلها.

وهو قدرة على ربط العلة بالمعلول من خلال النظر في عامل الزمن.

وهو قدرة على قراءة الأحداث والاعتبار بها.

وهو الالتزام بالميثاق، والبعد عن الافتراء.

وهو امتلاك منهج أو مسبار يميز به بين الحق والباطل.

هو إجراء يضبط التفكير و السلوك على نحو يؤمن النجاة مما يسـببه الشـطط أو البلادة.

وهو القدرة على تشكيل مرجعية في الذهن تضبط النظر والتفكير والسلوك.

وهو القدرة على التحليل والفهم للنص المرجعي.

وهو الإجراء الذهني الذي يمكن الناس من فهم الناموس الطبيعي والاستفادة مـن عبره.

وهو الإجراء الذهني والسلوكي الحركي الذي يعتمد الخبرة أساسا له.

وهو الإجراء الذي يمكن المرء من تحديد موقعه ومكانته في المجتمع والزمان والمكان.

وهو ضبط منهج التعاطي مع وقائع الحياة والطبيعة في سبيل معرفة الخـالق جـل شأنه.

وهو الإجراء الضابط المحدد لمسار التفكير والاعتقاد.

وهو الإجراء المؤدي إلى الهدى والرشاد.

وهو القدرة على الإفادة من الظواهر الكونية.

وهو جملة المواقف الوجدانية بإزاء أرض الإنسان.

وهو القدرة على تحديد السبيل، استنادا إلى معرفة تحصل بالتصديق لما جاء به الوحي على لسان النبي ﷺ(١).

وإذا كانت هذه هي مكونات العقل حسب السياق القرآني ودلالات النص؛ فإن النظر العقلي في القرآن جاء لغايات عظيمة:

- بناء العقل البشري بناء سليما عن طريق التفكير الصحيح طبقا للمنهج القويم الذي جاء به القرآن الكريم.

- إدراك أسرار الموجودات عن طريق دراسة حقائق الأشياء دراسة علمية دقيقة وشاملة كل جوانب الحياة.

- الإيمان بوجود خالق مدبر حكيم، وإخلاص العبودية له في كل حركة من حركات الحياة.

- إقامة الحياة في الأرض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون والحياة(٢).

ولا ريب أن النصوص المعبرة عن العقل تصب في الاتجاهات التالية:

١- آيات يحث فيها القرآن على إعمال العقل بما أنه ملكة فطرية في الإنسان.

---

(١) سعد كموني، العقل العربي في القرآن، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، القرآن والنظر العقلي، ص٢٨.

٢- آيات تشير إلى وظائف العقل وتوجيهه كالآيات التي تدعو إلى النظر والتبصر والتفكر والاعتبار.

والتفقه والتذكر.

٣- آيات تخاطب أصحاب العقول الرشيدة (أولي الألباب).

٤- آيات تذم الذين لا يعقلون.

٥ – آيات تشير إلى مرادفات العقل في القرآن الكريم.

٦- آيات تدعو إلى التدبر في القرآن الكريم.

"ليس في القرآن آية من آياته تخلو من إشارة دالة أو لمحة موحية للعقل الإنساني، تدله وترشده إلى العلم والمعرفة إلى الحد الذي جعل كثيرا من العلماء يعد النظر العقلي وأدلته التي أشار إليها القرآن وجها من وجوه إعجازه. والحق أن القرآن نقطة تحول حاسم، لا في تاريخ الدين والحضارة الدينية فحسب، بل أيضا في تاريخ الفكر والعلم بالمعنى الديني والعلمي والفلسفي، وذلك لاحتواء القرآن على المبادئ والسنن التي تمثل الضوابط والمنطلقات الإلهية للعلوم والمعارف الإنسانية على النحو الذي يجعل الوحي مع الوجود مصدرا ومنطلقا للعقل الإنساني في هذه المعارف والعلوم"(١).

فهذه أمثلة موجزة جاءت في سياقات مختلفة محرضة على استخدام العقل منبهة إلى التأمل في أسرار الكون والخلق الإنساني حتى يظل هذا العقل يطوف في أرجاء ملكوت الله مستنيرا مستفيدا من سنن الله – تعالى- في الحياة الدنيا، مفرقا بين الحق والباطل.

ولعل هذه الوظيفة التي يقوم بها العقل هي التي جعلت القرآن لا يذكره إلا على

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤.

سبيل المدح والتنويه به والإعلاء من شأنه. وهذا ما أشار إليه العقاد بقوله: «لا يذكر العقل -أي في القرآن- إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه. ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة، بل تأتى في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة»[١].

وللمعرفة في الشريعة الإسلامية طريقان: هما الوحي عن طريق الرسل أو التجربة المستمدة من الجمع بين العقل والحس.

ومن هنا كانت العلوم ثلاثة: **ضرورية**: وهي التي لا يمكن التشكيك وتلزم جميع العاقلين ولا تنفك عنهم مثل السماء فوقنا والارض تحتنا واشباه ذلك مما يدخل في مسمى قوانين العقل الضرورية.

وطبيعية: وهي المكتسبة بالنظر والاستدلال كعلوم الطب والصناعات والطبيعيات،وهنا يكون المجال رحبا للعقل في المعرفة والتوسع والاكتساب.

غيبية: وهي التي لا ينفرد العقل بمعرفتها بل لابد فيها من الخبر الصحيح عن طريق الوحي كعلوم الآخرة من بعث وحشر وجزاء وغيرها.

لذا كان الفهم السليم لنصوص الوحي أن"العقل شرط في معرفة العلوم وكمال الأعمال وصلاحها، وبه يكمل العلم والعمل، غير أنه ليس مستقلا بذلك، لكنه غريزة في النفس، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين، إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإذا انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها، وإن عزل بالكلية كانت القوال والأفعال مع

(١) عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص ٢٨٣، ضمن المجموعة الكاملة (مجلد).

عدمه أمورا حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق كما يحصل للبهيمة، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة،والأقوال المخالفة بالعقل باطلة"(١).

- مفردات المجال الدلالي للعقل:

كل لفظة في القرآن لها وجودها الذاتي ودلالتها وخصائصها المميزة لها عن غيرها من الألفاظ المشابهة أو المقاربة أو الملتبسة؛ ذلك أن لكل مصطلح قرآني بصمة خاصة به عن سائر المصطلحات؛ ومن ثم فلا ترادف في القرآن، ولكن قد تتناوب بعض الكلمات في التعبير عن دلالة كلمات أخر، فقد يحصل التعبير بلفظ للدلالة على آحد معاني لفظ آخر؛ وذلك بالنظر إلى **"الاستعمال السياقي" والضوابط الدقيقة "لعلم السياق القرآني"**؛ ومن هنا نقول: فلا الجدل هو الحجاج، ولا الحجاج هو الحوار، ولا الحوار هو المناظرة، ولا القلب هو العقل، ولا العقل هو اللب، ولا اللب هو النُّهَى... وقل مثل ذلك في سائر الألفاظ. ومن تلك المفرات التي يتوافر فيها بعض الدلالات أو الخصائص الجزئية المعبرة عن بعض وظائف العقل ما يلي:

١- **الحِجر**: وسمي عقلا؛ لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي كما سمي عقلا ونهية لأنه يعقل ويمنع قال الفراء والعرب تقول إنه لذو حجر إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها كأنه أخذ من قولهم حجرت على الرجل، وعلى هذا سمي العقل حجرالأنه يمنع من القبيح"(٢).

٢- **النُّهَى**: هي العقل وتكون للواحد وللجمع، والنُّهْية: العقل، لأنها تنهى عن

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج٣ ص ٣٣٨.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبيرج٣١ص ١٦٤-١٦٥.

القبيح،"وفلان ذو نهية: أي ذو عقل ينتهي به عن القبائح"[١].

٣- **الحِلم**: الأناة والعقل، وهو نقيض السفه.. وهو الأناة والتثبت في الأمور[٢].

٤- **اللب**: لب كل شيء ولبابه: خالصه وخياره، وخالص كل شيء لبه، ولب كل شيء نفسه وحقيقته. واللب هو العقل الخالص من الشوائب. وقيل هو العقل الزكي؛ ولهذا علق الله - تعالى- الأحكام التي لا تدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب[٣].

* * *

(١) محمد بن مكرم، لسان العرب،ج٦، ص ٤٥٦٥.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٩٨٠.
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٣٩٧٩.

المبحث الثالث
مفهوم القلب، وسياقات وروده، وأثر الوحي فيه

أ- القلب في اللغة:

القلوب جمع قلب، وهو أخص من الفؤاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أصبت حبة قلبه وسويداء قلبه، وقيل هما قريبان من السواء، ولكن هناك فروق دقيقة تتعلق بالمعنى والسياق، وإنما اختلف اللفظان لاختلاف المراد بهما في التعبير وإن تقاربا من بعض الوجوه، فالقلب مثلا من كل شيء لبه وخالصه. وقد يرد القلب بمعنى الفؤاد في بعض السياقات،وقد يعبر بالقلب عن العقل في بعض الحالات قال الفراء في قوله **تَعَالَىٰ**:﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾﴾ (ق: ٣٧).

قال الطبري في تفسيره: "إِنَّ فِي إِهْلاكِنَا الْقُرُونَ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا مِنْ قَبْلِ قُرَيْشٍ {لَذِكْرَى} يُتَذَكَّرُ بِهَا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَعْنِي: لِمَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَيَنْتَهِي عَنِ الْفِعْلِ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ"(١).

ب- القلب في الاصطلاح

ولا يسعني هنا إلا أن أستعرض تعريفا للقلب يعد من أهم التعريفات لما صاحبه من دراية معمقة بالتربية والتزكية وعلم السلوك حيث يقول:"لفظ القلب، وهو يطلق لمعنيين: **أحدهما** ذاك اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر،

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن ج٢١، ص ٤٦٢.

وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه...... ولا تتعلق به الأغراض الدينية.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني"(١).

وقد سمي القلب قلبا لتقلبه في الأمور(٢) أو لأنه خالص ما في البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وضع في القلب مقلوبا(٣).

إذن فالقلب هنا جهاز روحي ومعرفي له قدرات هائلة على التعقل والفهم والتبصر والتذكر والاستقبال والإرسال؛ لذا فهو مناط الحب والكراهية، والتفقه والمسؤولية واتخاذ القرارات المصيرية

"وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر؛ لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم الإنسان علاقة خاصة؛ فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بوساطة القلب، فتعلقها الأول وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها"(٤).

وأجمع أغلب المفسرين على أن القلب هو العقل. وفسره ابن عباس بالعقل وكذلك

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ج٣، ص٦.
(٢) محمد بن مكرم، لسان العرب،ج١١، ص ٢٧١.
(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١، ص١٧١.
(٤) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ج٣، ص٧.

مجاهد[1].

ولعل هذا من باب أن العقل هو حاسة القلب الجوهرية و هو قوة من قواه المركزية لا أن لفظة القلب مطابقة للفظة العقل بل لكل واحدة طبيعة مغايرة ومميزات خاصة وإن اشتركا في بعض الوظائف والسياقات

يبقى القلب هو الجهاز المهيمن والقائد لحركات الإنسان واتجاهاته ودوافعه وميوله ومواقفه؛ ومن هنا كان "القلب هو مركز الإيمان والكفر، ومصدر الخير والشر، وهو محل الفقه والمعرفة والعلم، بل هو منزل الوحي، وموطن كلام الله ﷻ، وهو يقوم بالتأمل والتفكر والتذكر، ويستفيد من تجارب الأمم السابقة"[2].

- سياقات ورود القلب في القرآن:

لقد استخدم القرآن القلب في عدة سياقات لتدل على المدح والذم كما استعمل في ذلك نعوتا محمودة و وظف نعوتا مقبوحة، ومن مجموع تلك الأوصاف تتضح الدلالات حسب قرائن الحال والمقال والمقام.

"ودلالة السياق من أعظم القرائن التي تدل على مراد المتكلم، وترشد إلى تبيين المجمل وإثبات المعنى المراد دون غيره وتخصيص العام وتقييد المطلق،وكل قول أو تفسير لا يؤيده السياق فلا عبرة به"[3].

إن النظر إلى الكلمة معزولة عن سياقها ولو من خلالة الدلالة المعجمية لا يحقق إلا الوقوف على المعاني الجزئية، وإنما نصل إلى المعناني الكلية بالنظر إلى حياة المصطلح في

(١) الحارث المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص١٢٠-١٢١.
(٢) الشيخ محمد علي الجوزو،مفهوم العقل والقلب في القرىن والسنة ص ٢٣٩.
(٣) عبد الرحمن بودرع، منهج السياق في فهم النص، ص٤٠.

دروب متعددة عبر سياقات مختلفة؛ ومن هنا كانت المرجعية الأولى في الضبط المصطلحي والمفهومي هي السياق وما يحف به من عناصر تساهم في الفهم الشمولي للمراد: "فليس معنى الكلمة المعجمي هو المعنى الرئيس كما درج على تقريره اللغوييون وعلى تصوره علماء المعجم، عندما بنوا معاجمهم على وحدة محددة هي الكلمة، ولكن لكل كلمة معاني شتى، عالقة بالكلمة، والسياق هو الذي يستدعي المعنى المناسب من بين تلك المعاني الكثيرة"(١).

ولتوضيح ذلك ننظر في لفظة "القلب" كيف اختلفت معانيها، وهي واحدة من سياق إلى سياق: "القلب ورد فى القرآن على ثلاثة معان: الأَوَّل: بمعنى العقل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧ ﴾ (ق: ٣٧).

الثانى: بمعنى الرأْى والتدبير: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (الحشر: ١٤).

أَى آراؤهم مختلفة.

الثالث: بمعنى حقيقة القلب الَّذى فى الصَّدر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾ (الحج: ٤٦)"(٢).

لذا تختلف أوصاف القلب وأعماله حسب السياق،فتارة يوصف أوصافا محمودة تدل على قيامه بوظائفه التي خلق لها، وتارة يوصف أوصافا مذمومة تدل على انحرافه

(١) المرجع السابق ص٥٩.
(٢) محمد بن يعقوب الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز ج٤، ص ٢٨٨- ٢٩١.

عن مساره الأصيل، ومن ذلك:

أ- النعوت الممدوحة التي تخص القلب المؤمن، وهي كثيرة منها:

١- سلامة القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الصافات: ٨٤).

٢- إنابة القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (ق: ٣٣).

٣- طهر القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

٤- تزيين القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ (الحجرات: ٧).

٥- كتابة الإيمان في القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢).

٦- تقوى القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج: ٣٢).

٧- هداية القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (التغابن: ١١).

٨- تمحيص القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

٩- امتحان القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ

ﱡٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ﱠ (الحجرات: ٣).

١٠- سكينة القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ﱠ (الفتح: ٤).

١١- خشوع القلب: قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﱠ (الحديد: ١٦).

١٢- وجل القلب: قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡإِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﱠ (الأنفال: ٢).

١٣- إخبات القلب: قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡوَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ ﱠ (الحج: ٥٤).

١٤- طمأنينة القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡوَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيﱠ (البقرة: ٢٦٠).

ب – النعوت المذمومة التي تخص القلب، وهي كثيرة منها:

١- الريبة والشك قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡإِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥ﱠ (التوبة: ٤٥).

٢- ظن السوء قَالَ تَعَالَىٰ: ﱡبَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢ﱠ (الفتح: ١٢).

٣- غفلة القلب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف: ٢٨).

٤- زيغ القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران: ٧).

٥- لهو القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأنبياء:٣).

٦- كفر القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ (البقرة: ٩٣).

٧- حمية الجاهلية في القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ (الفتح: ٢٦).

٨- الشدُّ على القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ (يونس: ٨٨).

٩- نفاق القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ ﴾ (النساء: ٦٣).

١٠- مرض القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ ﴾ (البقرة: ١٠).

١١- إثم القلـــــب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣ ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

١٢- الطبع على القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦ ﴾ (محمد: ١٦).

١٣- قلـــوب غلـــف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾ (البقرة: ٨٨).

١٤- الختم على القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦ ﴾ (الأنعام: ٤٦).

١٥- تعمـــــد القلـــــوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥ ﴾ (الأحزاب: ٥).

١٦- كسب القلوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥ ﴾ (البقرة: ٢٢٥).

١٧- **عمى القلـــوب:** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ (الحج: ٤٦).

١٨- **أكنة علـــى القلـــب:** ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الأنعام: ٢٥).

- أثر الوحي في القلب:

يؤثر القرآن إيمانا ويقينا، وخوفا ورجاء، وتوكلا وتفويضا، وإخلاصا وافتقارا، وخشوعا وإخباتا وزهدا وتبتلا.

إن الهدى القرآني ليحول القلب من الغفلة إلى الذكر، ومن الشك إلى اليقين، ومن التكبر إلى التواضع، ومن العمى إلى البصيرة ونجد أنه: "لما كان للقلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب - كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوَّتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قــوَّة العلــم في إدراك الحـــقِّ ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوَّة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته، وإيثاره على الباطل، فمَن لم يعرف الحقَّ فهو ضالٌّ، ومَن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوبٌ عليه، ومَن عرفه واتَّبعه فهو مُنْعَمٌ عليه"[(١)]. وللقلب وظيفة كبيرة في معرفة هذه الحقائق والالتزام: "قال بعض المفسّرين: القلوب سبعة:

١- قلب الكافر فى غِلاف وغطاءٍ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الأنعام: ٢٥).

٢- وقلب المنافق فى حجاب الرّياءِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ (البقرة: ٧).

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص ٢٠.

٣- وقلب المبتدع في الزَيْغِ والهَوَى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ (الصف: ٥).

٤- وقلب الفاسق الغريق في بحر العناءِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ (آل عمران: ١٥١).

٥- وقلب الغافل الرّاغب في الدنيا ودار الفناءِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ (الكهف: ٢٨).

٦- وقلب العابد المنتظر ثواب حضرة الكبرياءِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾ (الشعراء: ٨٩).

٧- وقلب العارف المنتظر اللِّقاءَ في دار البقاءِ[1]: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ (النحل: ١٠٦).

القرآن كشَّاف لحقائق القلوب، وخبايا النفوس، ومكنونات الضمائر؛ وهو بذلك يجعل الإنسان على المحك، ويعالج قلبه امتحانا وتمحيصا وسيرا إلى مدارج التدبر ومعارج التفكر.

وإنه ليرقى بالإحساس والشعور، ويسمو بالفكر والفهم، ويزود القلب بالتصورات والموازين والقيم حتى يجتث من نفسه جذور الشرك والضلال، ويملأه بالنور، ويقطع عنه العوائق والعلائق، ويصرفه عن التعلق بالمخلوق إلى التعلق بالخالق، وعن التعلق

(١) محمد بن يعقوب الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز ج٤، ص ٢٩١.

بالدنيا إلى التعلق الآخرة، وعن التعلق بالأشياء المادية إلى التعلق بالأعمال الصالحة التي هى مدار الفوز والفلاح.

و إذا كان العقل أداة مهمة في البحث والوصول إلى الحقائق انطلاقا من النظـــر في آيات الكون الفسيح والقرآن العظيم؛ فإن العاطفة القلبية تؤازر العقل باعتبارها قـــوة نفسية تدفع الإنسان إلى التطبيق العملي وتحرك فيه المشاعر المصاحبة للقيام بالأعمـــال. فإذا كانت النـــزعة العقلية هي التي تجعل الإنسان يسلِّم ويقتنع، فإن الاتجاه الوجداني هو الذي يحث الإنسان على الاستجابة والتنفيذ بقوة واندفاع. وهذا ما جعل القـــرآن الكريم يخاطب هذه القوة الوجدانية ويحرك ما فيها من مشاعر اللذة والألم والخـــوف والرجاء واليأس والأمل والاستعداد والكسل والترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

فكما ركز القرآن على الجدل والبرهنة والاستنباط والاستقراء وربـــط الأســـباب بالمسببات، فإنه كذلك لم ينس التركيز على القلب تحذيرا وتنفيرا، وترقيقا وتشـــويقا، وشفقة ورحمة، ولينا وتهويلا وتعجبا. وقد خاطب القرآن القلب باعتبـــاره مصـــدرا للعواطف المختلفة والمشاعر الطيبة الصادرة عن الفطرة السليمة السوية. من ذلك قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق: ٣٧).

ففي هذه الآية الكريمة يقصد بالقلب مصدر الهداية والفهم والإيمان، وهذا هو معنى الضمير الإنساني الذي تصدر عنه العواطف المختلفة، وذلك ما يستفاد مـــن قولـــه – تعالى- ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وترشدنا الآية إلى ما للعاطفة من أثر كبير في توجيه المجتمع وصياغة مفردات حياته العامة والخاصة، فهذا قلب النبي ﷺ تنبعث منه مشاعر الرحمة والعطف واللين والحب فتحقق في حياة الناس من الأمن والطمأنينة والاستقرار ما لا تحققه فلسفات المفكرين ونظرياتهم في الإصلاح والتغيير وما لا تصل إليه الجيوش الجرارة والأسلحة الفتاكة.فالبشرية تحتاج إلى النفوس العظيمة والقلوب الكبيرة والكنف الرحيم والبسمة الدائمة والرعاية الفائقة التي تقدر أن تواجه ما عند الناس من الجهالة والطيش والطاقات السلبية بما عندها من الطاقات الإيجابية خلقا عظيما وعطاء كبيرا ورحمة واسعة وحكمة بالغة وسماحة وودا ورضى.

وكما صور القرآن الكريم ما في قلب الرسول ﷺ من الشفقة والحب والرحمة والحنان والرفق واللين وغير ذلك من أساليب الدعوة والحرص على هداية الخلق، نجده يعرض مشاهد من العواطف الجياشة الصادرة من قلوب مؤمنة متخلقة بأخلاق نبيها، مثل عواطف الرضى والاطمئنان والخوف والوجل قال – تعالى-: ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ** ﴾ (الحديد: ٢٧).

وقال – تعالى-: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢** ﴾ (الأنفال: ٢).

وقال – تعالى-: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦** ﴾ (السجدة: ١٦).

وقال – تعالى-: ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ**

ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ (الحجرات: ٧).

إن هــذه العواطف المختلفة، رأفة ورحمة، ووجلا وخوفا وطمعا وحبا وكراهيــة، لا تصدر إلا عن القلوب العامرة بالإيمان الراغبة في طاعة الــرحمن المجانبــة للفســوق والعصيان. ولعل هذا ما تعبر عنه كلمات ومصطلحات قرآنيةٌ تصف أخلاق المــؤمنين ومشاعرهم ومواقفهم مثل "الوجل"، و"الطمع"، و"الرحمة"، و"الرأفــة"، و"حَبّــب"، و"زيِّنَ"، و"كَرَّه" وهي كلها تنتمي إلى معجم القلوب وعالم الوجدان، وذلك أن عالم القلوب عميق ومحدد لهوية الإنسان وسيرته وسريرته ومواقفــه الكــبرى وتصــوراته ومفاهيمه وقراءته للكون والحياة والمستقبل.

إن المهام الكبرى في الإنسان يقوم بها القلب باعتباره جهازا مركزيــا يــتحكم في الظاهر والباطن، وفي الدوافع والتصرفات، وفي الإرادات والمسالك: "للقلــب جنــودٌ ظاهرة، وأخرى باطنة، فأما جنده المشاهد بالعين فهي: اليد، والرجل، والعين، والأذن، واللسان، وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، فإن جميعها خادمة للقلب ومسخَّرة لــه، فهو المتصرِّف فيها والمردِّد لها، وقد خُلِقت مجبولة على طاعته لا تستطيع عليه خلافًــا، ولا عليه تمرُّدًا... وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجهةٍ تسخير الملائكة لله - تعالى-... فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث، ومســتحث يعبر عن هذا الباعث بالإرادة، والثاني المحرك لتحصيل المقاصد ويعبر عن هذا بالقدرة، والثالث هو المدرك"(١).

وإذا كانت تلك نماذج من عواطف المؤمنين، فإن القرآن سجل بالتفصيل عواطف

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٦.

الكافرين من خوف ورعب واشمئزاز واضطراب وذلك في مثل قوله – تعالى–: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥ ﴾ (الزمر: ٤٥).

ويسجل القرآن الحالة النفسية التي تصيب الكافرين وما يتركه سلوكهم الباطل في قلوبهم من الشرك وغيره من أمراض القلوب. قال – تعالى– ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥١ ﴾ (آل عمران: ١٥١).

ومن العواطف التي صور القرآن أثرها في نفوس المؤمنين عاطفة الرغبة في إشباع الجمال وتذوقه واستشعار نعمته. فالإنسان يرى ببصيرته ما في الكون من دقة النظام وكمال الخلق وحكمة القصد. وها نحن أولاء نعيش مشهدا من مشاهد المتعة بالجمال في ظاهرة "الأنعام" التي خلقت لتؤدي في حياة الإنسان إلى مقصدين: **الأول** الانتفاع بها في شتى مجالات الحياة. **والثاني** التمتع بما فيها من جمال قال – تعالى–: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ ﴾(النحل: ٥–٦).

في هذه الآية تلبية لضرورات الإنسان المعبَّر عنها بالدفء والمنافع، وأشواقِه المعبَّر عنها "بالجمال"، فللجمال مرتبة عظيمة في القرآن، فجمال الخلقة الكونية والإنسانية ينشأ عنه جمال الإحساس والعاطفة، وجمال الوحي والشريعة ينشأ عنه جمال الفهم والتعبد، وجمال التصورات والرؤى والقيم القرآنية، يولد معاني عظيمة تحرك في الإنسان أعظم معاني الجمال المركوزة في الفطرة البشرية. ومن ثم أشار القرآن إلى

منـــزلة الجمال وغايته وارتباطه العظيم بالروح الإنسانية.

ولما كانت نصوص القرآن قد تواردت معبرة عن أسرار الجمال في هـــذا الكـــون الفسيح، وما فيه من بديع صنع الله، وما يخضع له من نواميس لا تـــتغير ولا تتبـــدل، وجدنا لعاطفة الإحساس بالجمال موقعا مرموقا في الدين، أيّ دين «والحقيقة أن الدين – أيّ دين– يقوم في صميمه على آثار العاطفة وتحريك الوجدان، وهذا لا يكـــون إلا إذا خفق القلب خفقات الحب والشوق بما يحمل إليه العقل من أسرار هذا الوجود وما في هذه الأسرار من روعة الحكمة وعظمة القدرة وسلطان العلم»(١).

وقد انتبه علم النفس الاجتماعي إلى ما للعاطفة من دور فعال في توجيـــه المجتمـــع وتحريك عواطفه، ومن ثم، فالخطباء ورجال السياسة يخاطبون الشعور أكثر مما يخاطبون العقل. وتستجيب الجماهير لنداء العاطفة قبل أن تلبي نداء العقل، وفي ذلـــك يقـــول الباحث الفرنسي جوستاف لوبون: «لقد بينا أنه لا يؤثر في الجماعات بـــالمعقولات، وأن الجماعات لا تفقه ما غلظ من الخواطر المتنادية، والجماعات هي الـــتي تُخَاطـــب الخطباءُ مشاعرَها لا عقلَها أبدا. والجماعات هي التي لا تأثير لسنن المنطق والعقل فيها. ومن يرغب في إقناع الجماعات فعليه أن يلتفت إلى ما يثيرها من المشاعر وأن يتظـــاهر بمشاطرتها هذه المشاعر»(٢). وقد يصدق هذا الكلام الذي ذكـــره جوســـتاف علـــى الدراسات الاجتماعية المنجَزة في سياق تاريخي تصطبغ بصبغته وتنفعل بمعطياته. ولكن هذا الحكم لا ينطبق على النص القرآني الذي جاء خطابه الحجاجي الإقناعي مراعيـــا

---

(١) عبد الكريم الخطيب، منهج البحث في العقيدة والشريعة – (مقال من مجلة التضـــامن الإســـلامي - (السعودية) ج ٦ – ذو الحجة ١٩٧٧ هـــ).
(٢) جوستاف لوبون،كتاب روح الجماعات:، ص: ١٠٥ – ترجمة: عادل زعتر.

لكل ملكات النفس، نافذا إليها من كل المنافذ وافيا بحاجاتها في الخطاب والاستدلال والإقناع، ومن ثم كان القرآن خطابا من العليم الخبير للكيان الإنساني كله روحا وعقلا ووجدانا كما نجد آيات القلب في القرآن "تتحدث عن جوانب كثيرة في النفس البشرية بحيث تشعرنا أحيانا أننا أمام صورة من صور العقل أو أمام العقل ذاته، وأحيانا نشعر أننا أمام العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانية، وأحيانا ثالثة نجد أنفسنا أمام جانب يجمع بين الجانبين: العقلي والعاطفي وبزيد عليهما عمقا وبعدا آخر"(١).

ونود أن ننبه في نهاية هذا المبحث المتعلق بأثر القرآن في القلب ودوره الفعال في تحريك الشعور وتوجيه السلوك على أن لفظة "القلب" بوجوهها المختلفة قد وردت مفردة ومثناه وجمعا، مضمومة إلى غيرها أو مضموما إليها غيرها، مما يؤكد أهمية القلب وسلطانه العظيم على السلوك الإنساني؛ فإذا كان العقل يبرمج ويقنن ويخطط، فإن العاطفة القلبية تندفع إلى الإنجاز والفعل والتطبيق.

وفي كل الحالات فإن القلب قادر على التعاطي مع الجمال في اللغة والفكرة والأسلوب والفطرة بلا تكلف ولا تصنع بعيدا عن كل ما يعكر صفو النفس أو يعطل أثر البلاغة والبراعة في القلب. وفي ذلك يقول الجاحظ: "إذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه، وكان منزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة"(٢).

ويتجلى أن طبيعة السمو القرآني في خطاب القلب والعقل، وما يحدثه في النفوس

(١) محمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، ص١٨٦.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١١.

من عواطف الفرح والحزن، والهدوء والاضطراب، والتفاؤل والتشاؤم، وما ينشأ عن ذلك من أنماط السلوك: إيماناً وكفراً، واستجابة وعناداً، وقبولاً واستكباراً: «إذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويُطمِّع وييئس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودا، وله مسالك في النفوس ومداخل إلى القلوب دقيقة»[1].

إن قوة الحجاج الإقناعي في القرآن الكريم وما يجري فيه من أثر علوي عجيب جعله يستحوذ على مجامع القلوب ويهيمن على مداخل النفوس، ويحول الإنسان من عقيدة إلى أخرى، ومن سلوك إلى سلوك، هو ما تفطن له أحد البلاغيين قديما فقال: «قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع الأسماع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مسراتها وعقائدها الراسخة فيها»[2].

ويتجلى مما سبق من كلام البلاغيين واللسانيين أن الجانب الحجاجي الجلي كان

(١) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص ٧٠.

(٢) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص ٧١.

وجها من وجوه التأثير والإقناع والاستجابة التي تحققت بسبب هيمنة الإعجاز الـذي اختص به القرآن «لأن الكلام في جوهره هو الذي يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل والوجدان من النفس. وإذا نجح التبليغ في ذلك كان ثمرته تحريك الهمة وتوجيه الإرادة للعمل وفق ما حصله من اقتناع عقلي وترسب في أعماقه من انطباعات نفسية»(١).

إن القرآن الكريم حين يحاور ويجادل عن الحقائق الكونية الخالدة لا يخاطب العقل، وينسى العاطفة، بل يوجه بخطابه إليهما معاً، وبقدر ما يسوق دلائل المنطق يحرص على إشباع الوجدان، وتحريك الضمير، وتبصير القلب.

ولا يكفي في تغيير حياة الإنسان قلباً وقالباً الاعتماد على الحجاج والجدل فحسب، بل لابد من مخاطبة الإنسان في أبعاده كلها جمعا بين الفطرة والعقل، والحس والتجريد، والروح والنفس: «لأن العقيدة الدينية لا ينشئها هذا الجدل، في حين استطاع القرآن الكريم بجدله المتميز وبفنونه البلاغية الجامعة بين حاجات العقل والوجدان أن يبلغ غايته في بضع سنين»(٢).

إن المتدبر ليلاحظ للقلب في القرآن عدة وظائف معبر عنها في سياقات ونصوص متعددة، وهي تترجم عن بعض الخصائص والآثار الناتجة عن عمل القلب ومسؤليته ومركزية أنشطته وأعماله، و مدى تكامله وتداخله مع العقل، ومن أبرز تلك الوظائف التي ذكر القلب صريحا في سياقها:

(١) المرجع السابق، ص: ٤١٩.
(٢) عبد الغني بركة، أسلوب الدعوة القرآنية، ص: ٩٩.

١- **وظيفة التعقُّل**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج: ٤٦).

٢- **وظيفة التدبر**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد: ٢٤).

٣- **وظيفة التعلم**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (التوبة: ٩٣).

٤- **وظيفة السمع** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الأعراف: ١٠٠).

٥- **وظيفة التبصر**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، و**قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج: ٤٦).

٦- **وظيفة التفقه**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

٧- **وظيفة التذكر**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق: ٣٧).

وإلى جانب القلب نجد آيات أخرى تخاطب العقل وتحرك طاقاتـــه، وهـــي علـــى أضرب:

الضرب الأول يدعو إلى النظر قـــال – تعـــالى-: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ (الطارق: ٥).

الضرب الثاني يدعو إلى التبصر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات: ٢١).

الضرب الثالث يدعو إلى التدبر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (المؤمنون: ٦٨).

الضـــرب الرابـــع يـــدعو إلى التفكـــر: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (النحل: ١١).

الضرب الخامس يدعو إلى الاعتبـــار: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف: ١١١).

الضرب السادس يدعو إلى التفقـــه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأنعام: ٦٥).

الضرب الســـابع آيـــات تـــدعو إلى التـــذكر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٦).

ولما رأينا منهج القرآن شاملا للقلب والعقل والروح، وجامعا بين خطاب الفطـرة والوجدان ومنطق العقول الرشيدة وقائما على أصول ثابتـة في النظـر والاسـتدلال والدعوة إلى الصراط المتسقيم نقول بحزم وجزم ويقين كما قال الشـيخ أبـو حامـد الغزالي: "أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفـع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون بل إن أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع بـه الصـبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضـون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا"(١).

وإذا كان العقل قادرا على الملاحظة والبحث والاستقراء والاسـتنباط، والحـوار والجدل، والمقارنة والتصنيف، والتحصيل والفهـم، والتعليـل والحكـم،، والتفكـر والاستدلال، والوقوف على أسرار الخلق والإبداع؛ فإن القلب هو رأس الملكات وإمام كل القوى الباطنية والطاقات الإنسانية، وما السمع والبصر والفؤاد واللـب إلا مـن جنوده الأبرار، وسدنته الأخيار، بل ما هذا العقل الجبار إلا حاسة راقية من حـواس القلب.

ولئن كان "العقل في القرآن إذن هو أسمى ما في الإنسان؛ لأنه هو الذي يميزه عـن الحيوان، وهو الذي يصله بالكون وخالقه، فهو حقيقة النور الذي يكشف له أسـرار المعرفة، ليؤمن إيمانا يقينيا مدركا واعيا"(٢) فإن القلب هو الذي يعقل، وهـو الـذي يفقه، وهو الذي يحب ويكره، وهو الذي يخاف ويخشى، وهو الذي يمرض ويأثم، وهو المسؤول عن سلوك الإنسان، بل هو موطن العواطف، وهو مصـدر الخـير والشـر،

(١) أبو حامد الغزالي،رسالة إلجام العوام عن علم الكلام.

(٢) الشيخ محمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص١٠٠.

والإخلاص والرياء، والوعي والبصيرة:"فالحقيقة المستمدة من العلم تختلف اختلافا تاما عن تلك المستمدة من الإيمان. فالأخيرة أكثر عمقا ولا يمكن التشكيك فيها بالمجادلات.إنها تشبه الحقيقة التي يعطيها البصر المغناطيسي، ولكن مما يدعو إلى الغرابة أن هذه الحقيقة ليست غريبة على العلم. إذ من الواضح أن الاكتشافات الكبيرة ليست نتاج العقل فحسب؛ فإن العباقرة يملكون إلى جانب قوة الملاحظة والفهم صفات أخرى مثل البصيرة والخيال المبتدع"[١].

و تتجلى أهمية القلب في علاقته بالوحي وتركيز الخطاب القرآني عليه، فهو مكان تنزل الوحي والعلم والفقه والهداية وكتابة الإيمان ونظر الرحمن كما ترتبط بالقلب أهم أمور الإيمان والإدراك والوعي في لقاء متناسق الطبيعة والمهام والمسؤوليات بينه وبين العقل: "هذا اللقاء بين العقل والقلب في الارتباط بالمعرفة أولا، وبالحواس التي تساعد على المعرفة، والتمييز بين الإنسان والحيوان على أساسهما، وتشبيه الكفار الذين لا يستفيدون من هذا بالحيوانات.. هذا اللقاء يجعلنا نتصور وحدة الهدف والغاية بينهما، بل وحدة الدور الذي يؤديانه، فإما أن يكونا شيئا واحدا في الحقيقة والواقع، وإما أن يكونا متلازمين كليا في العمل حتى أن أحدهما لا ينفك عن الآخر"[٢].

والقلب في الحقيقة واحد ولكنه في التصنيف قلبان: طيب لا يقبل إلا الإيمان والهدى والتقى، وخبيث لا يكون إلا مأوى للزيغ والكفر والضلال.

ولئن كان العقل والقلب يشتركان في بعض الوظائف والخصائص كالعمل

(١) الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول ص١٤٥.
(٢) الشيخ محمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٢٠٨.

الفكري؛ فإن القلب ينفرد بالجوانب العاطفية والوجدانية والبصيرة النفاذة بينما يعد التفكير والتجريد والفهم من أعمال العقل الجوهرية: "هناك فرق في الدور الذي يؤديه كل منهما، العقل يستعرض المعلومات وينظمها، ويستنتج منها ما يرشده إلى المعرفة. والقلب يدرك هذه المعلومات إدراكا باطنيا وجدانيا، قد يكون العقل عاملا مساعدا فيها، أو قد يكون جزءا لايتجزأ من القلب، يندرج تحته ويكون في خدمته؛ لأن المعرفة الحقيقية هي معرفة القلب"(١).

وهكذا نجد هذا التكامل بين وظائف القلب والعقل الذي أصَّلَه القرآن وبنى عليه تصوره الكوني في مخاطبة الإنسان وتحميله مسؤولية الخلافة في الأرض، وتعبيره عن الإرادة الإلهية(٢).

إذن ليس العقل مساويا للقلب ولا ندًّا له ولا حاكما عليه وكما لا يستطيع العقل القيام بوظائفه إلا بمعونة السمع والبصر؛ فإنه كذلك لا يستطيع إنجاز المشاريع الكبرى المتعلقة بحقيقة الإنسان وجوهره إلا بالتكامل والتعاون والتشارك مع القلب بحيث يكون التحكم والهيمنة والقرار بأمر من القلب، وهنا يظهر العقل طاقة من طاقات القلب وحاسة من حواسه: "يبدو العقل في القرآن فذا فريدا في نوعه، عندما يستخدم التعبير بالقلب إلى جانب فعل العقل؛ ليؤكد أن الإنسان ليس عقلا جامدا فقط، بل هو عقل وقلب، أو هو قلب يعقل، يحس، يشعر، يتأثر، يدرك"(٣).

وتمتزج في الخطاب القرآني وظائف العقل والقلب سواء كانت معرفة حسية أو

---

(١) المرجع السابق ص٢٧٥.

(٢) البوطي، منهج تربوي فريد في القرآن، ص ٨١.

(٣) الشيخ محمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٢٧٩.

كانت معرفة معنوية، أو سواء تعلق الأمر بالإدراك الحسي أو تعلق بالمعارف القلبية: "إن هذا المزج بين التعبيرين يشكل ظاهرة فريدة تختلف عن غيرها كل الاختلاف، وتعطي للعقل في القرآن بعدا جديدا، يجمع بين العقل الظاهر والعقل الباطن، وبين التفكير والشعور الوجداني"[(١)].

ورغم التكامل بين هذين الجهازين المعرفيين؛ فإن القلب يتميز عن العقل بميزات أخص، ووظائف أكبر؛ وهذا ما أشار إليه أحد العلماء بقوله: "أما القلب في الكتاب والسنة، فإنه يبدو متميزا عن العقل،بأنه عقل ملهم، عقل مبصر، عقل يشعر من أعماق الذات الإنسانية، ويدرك حقائق الأشياء بنور يقذفه الله فيه، فهو مكان الوحي، وهو مكان الإيمان، وهو مكان التقوى، ومكان العلم، بل هو أعظم عضو في الإنسان، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله"[(٢)].

* * *

(١) المرجع السابق، ص٢٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

فهرس المصادر والمراجع

١- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

٢- ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، مجمع الفقه الاسلامي، جدة، السعودية.

٣- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧.

٤- أبو حامد الغزالي، رسالة إلجام العوام عن علم الكلام، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٣م.

٥- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين دار المعرفة - بيروت.

٦- أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦.

٧- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، دار العاصمة، ١٩٩٩.

٨- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد للمصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥.

٩- أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، دار ابن الجوزي، ١٩٩٦.

١٠- أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الفكر، ١٩٧٩.

١١- أحمد علي الجلي، دراسات في العقيدة الاسلامية، مكتبة جامعة الامارات العربية، العين.

١٢- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة المنيرية، القاهرة.

١٣- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ١٩٥٧.

١٤- الترمذي، سنن الترمذي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٥.

١٥- الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، ١٩٩٨.

١٦- جوستاف لوبون،كتاب روح الجماعات:، دار المعارف، مصر، ١٩٥٠.

١٧- الحارث المحاسبي، العقل وفهم القرآن، دار الفكر، ط١، ١٩٧١.

١٨- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣.

١٩- سعد كموني، العقل العربي في القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٥.

٢٠- الشاهد البوشيخي، شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، منشورات جريدة المحجة، ٢٠٠١.

٢١- الشيخ أحمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.

٢٢- عباس محمود العقاد، التفكر فريضة إسلامية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا.

٢٣- عبد الرحمن الزبيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي في ضوء الإسلام مكتبة المؤيد، ط١، ١٩٩٢م.

٢٤- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار يعرب، ٢٠٠٤.

٢٥- عبد الغني بركة، أسلوب الدعوة القرآنية، مكتبة وهبة للنشر والطباعة، ١٩٨٣.

٢٦- عبد الكريم الخطيب، منهج البحث في العقيدة والشريعة، مقال من مجلة التضامن الإسلامي، السعودية، ج ٦ - ١٩٧٩.

٢٧- علي بن إسماعيل أبو الحسن ابن سيده، المخصص، دار الطباعة الكبرى الأميرية، ١٨٩٨-١٩٠٣.

٢٨- فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، القرآن والنظر العقلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيريندن، ١٩٨١.

٢٩- الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مكتبة المعارف، بيروت.

٣٠- مجد الدين الفيروزآبادى، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٦.

٣١- محمد بن احمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٧.

٣٢- محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١.

٣٣- محمد بن جرير الطربري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٧٨.

٣٤- محمد بن عمر فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩.

٣٥- محمد بن مكرم بن منظور الافريقي، لسان العرب، دار صادر – بيروت.

٣٦- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥.

٣٧- محمد سعيد البوطي، منهج تربوي فريد في القرآن، دار الفارابي للمعارف، ط٣، ١٩٩٢.

٣٨- محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، دار القلم – الكويت، ١٩٨٤.

٣٩- محمد علي بن حمزة، التعقل في مجال العقيدة، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٣٠٥، ديسمبر ١٩٨٩.

٤٠- محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

* * *